مقدمة المترجم

لا تـــزال فلسفة يورغين هابرماس Jürgen Habermas إلى اليوم وفي بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين تشع نضارة ووجاهة، زاخـــرة بمفاهيم ومفردات الفعل التواصلي، ما بعد الميتافيزيقي، الحداثة والعقلانية، الحق، إبستيمولوجيا التواصل وأخلاق المناقشة.

اليوم وبعد قرابة مائة سنة من قيام مدرسة فرانكفورت L'École de Francfort الـــتي ينتمي إليها فيلسوفنا هابرماس ويمثّل مرحلة منها هـــي مـــرحلة جيلها الثاني، تظل الأهداف التي قامت من أجلها هذه المدرسة والأفكار التي تأسست عليها – إحدى أكثر المدارس الفلسفية في القـــرن العـــشرين إشـــعاعا وتنويرا – متغلغلة وحاضرة في الثقافة الفلـــسفية الحالـــية، حاضرة بمساءلاتها النقدية وبطروحاتها الداعية إلى وصـــل الفلـــسفة بالعلـــوم الاجتماعية وإلى دراسة الظاهرة الإنسانية (الاجتماعية) بتضافر جهود الفروع المتداخلة.

فقد تجلت في المبادئ العامة للنظرية النقدية الخلفيات النظرية، عريقة المنـــبت والأصـــل في التراث الفلسفي الألماني وضمت الأصول الكانطية Kantisme والهيغيلـــــية Hégélianisme والماركـــــسية Marxisme والنيتشوية Nietzschéisme وصارت هي بدورها – أي المرحلة الأولى للمدرســـة – روافد هامة في بناء الفلسفة الهابرماسية حينما جعلت من نـــصوص أدورنـــو Adorno وهوركهايمـــر Horkheimer وماركوز Marcuse دعامة ضرورية لمواصلة مشوار الفكر الفلسفي.

مـــع هذا، ففلسفة هابرماس لم تنشن على ذاتها مغلقة على نفسها ســـبل التواصـــل وهـــي التي فلسفته وخصصت له محاولات عدة لذا انفـــتحت علـــى الطروحات الفلسفية الأخرى في الثقافات الفلسفية الفرنـــسية، الأمريكية والإنغليزية وتحاورت معها بشأن الحداثة وما بعد الحداثـــة فكانـــت لهـــا وصـــلات مهمة وجدالات كبيرة مع فلاسفة الاختلاف – فوكو Foucault ودولوز Deleuze ودريدا Derrida – وأيضا مع الأنغلوساكسون – رورتي Rorty وتايلور Taylor وراولس Rawls –.

لـــئن كـــان موضـــوع الحداثـــة وما بعد الحداثة شاملا متضمنا للمواضـــيع الفلـــسفية الأخرى إلا أن هابرماس فتح جبهات عريضة للـــنقاش حول المجتمع والحق والفضاء العام والعدالة والفن والديمقراطية واللغة وغيرها من المواضيع التي شكلت البناء الفلسفي لدى هابرماس. في المنحـــى الفكـــري لـــ هابرماس نعثر على تلك الفكرة القريبة من عقول زعماء مدرسة فراكفورت وهي من أسسها، أقصد البحث الدائم عـــن توطيد علاقة الفلسفة بالعلوم وخاصة الاجتماعية منها. يكفي في هـــذا المقـــام التذكير بأن اسم المدرسة أي معهد الأبحاث الاجتماعية يكـــشف عن عمق هذا الهدف لدى هوركهايمر وأدورنو والجيل التالي لهما.

هـــذه الفكـــرة التي جاءت بعد فترة غير قصيرة كانت فيها حمى اســـتقلالية العلـــوم – لا سيما الإنسانية والاجتماعية منها – في القرن التاســـع عـــشر تجتاح جميع مناحي الثقافة الإنسانية، بلغ مداها درجة تفتيت وتشظّي كل حقل علمي إلى علوم وتخصصات. بيد أن فلاسفة مدرسة فرانكفورت كانوا ذوي توجه آخر تتعاون فيه الفروع العلمية وتتضافر جهود أصحابها بغية، ليس فقط تقديم نتائج أفضل من منظور

شمولـــية النظرة التي يفتقدها التخصص الدقيق، وهي من النقاط السلبية التي أشار إليها أوغست كونت Auguste Comte في تقييمه للفلسفة الوضـــعية، إنما كذلك بإعادة اللحمة والإبقاء على التقاطعات المعرفية وتعزيـــزها وهـــو ما يفضي في كثير من الأحيان إلى ما يعرف بتزاوج الفروع وتداخلها interdisciplinarité.

إن محاولـــة الإبقـــاء على صلة الفلسفة بالعلوم الاجتماعية قوية لا يعـــني الاحـــتفاظ بالإطار الإبستمولوجي، الذي تكون الفلسفة من الناحـــية النظـــرية، صاحبة السيادة في ممارسة تحليلاتها المعرفية لإمداد الفروع الأخرى بما تحتاجه من أبعاد فكرية ومنهجية، إنما بالأساس هو دعـــوة مـــتجددة للانشغال الفلسفي بالواقع وتكريس البعد العملي في مهام الفلسفة وهو في الآن نفسه نفي ورفض للقول بموت الفلسفة. إن الجهـــد النقدي الذي ندبت له مدرسة فرانكفورت وقتها وجهدها هو الطابـــع الخاص الذي تميزت به هذه المدرسة فغدت معروفة به، مدافعة ومنافحة عن إمكاناته وقدراته على فهم وتفسير الظواهر التي تصاحب حياة الإنسان وتحرك الحياة الاجتماعية.

مـــن هذه الزاوية بالتحديد والتي هي من صميم اهتمامات مؤلف الكـــتاب، حـــيث أنه يعمل كأستاذ وباحث بجامعة باريس 10 ضمن مجـــالات تـــاريخ وإبستمولوجيا العلوم الإنسانية والاجتماعية وبشكل خاص التحليل النفسي والسوسيولوجيا وكذلك تفاعلات الفلسفة مع العلوم الاجتماعية.

ســـتيفان هابر Stéphane Haber يعتبر من المختصين في مدرسة فـــرانكفورت وفي فلسفة هابرماس وقد خصص مجموعة من الدراسات والمقالات لمناقشة وعرض ونقد أفكار فلاسفة النقد الأوائل (هوركهايمر وأدورنو) والحاليين (هابرماس وهونيث) فأبحاثه تنصب على البحث في

النظرية الاجتماعية والسياسية بوجه خاص وعلى فلسفة العلوم الإنسانية بوجه عام. وقد بدأ بنشر أول أعماله حول العلوم الإنسانية سنة 1995 ثم هـذا الكـتاب الـذي نـنقله اليوم إلى اللغة العربية – هابرماس والـسوسيولوجيا سنة 1998م بعد ذلك مفردات مدرسة فرانكفورت بالاشتراك مع إيف كيسيه Yves Cusset سنة 2001 ليعود مجددا إلى هابرماس في عمل موسوم، مقدمة إلى هابرماس سنة 2002 كما صدر له سنة 2006 نقد معاداة النـزعة الطبيعية وبعدها بسنة أي في 2007 كـتاب الاغتراب وفي سنة 2009 نشر مؤلف حول الإنسان المحروم: تراث نقدي من ماركس إلى هونيث.

إضافة إلى هذه المؤلفات فقد أشرف على أعمال جماعية:

- الفعل في الفلسفة المعاصرة سنة 2004.
- هابرماس وفوكو. مسارات متقاطعة، مجابهات نقدية إشراف مزدوج مع إيف كيسيه سنة 2006
- من الأمراض الاجتماعية إلى الأمراض الذهنية سنة 2010.

وللمؤلف أيضا ترجمات لأعمال فلاسفة مدرسة فرانكفورت مثل ترجمته لكتاب أكسيل هونيث Axel Honeth التشيؤ La Réification سنة 2007. علاوة على هذه المؤلفات فله العديد من المقالات المنشورة في مجـلات مخـتلفة تـدور في معظمها حول اهتماماته المتصلة بتاريخ الفلـسفة المعاصرة وبالمشكلات المعاصرة للنظرية الاجتماعية والسياسية (النظـرية النقدية، الديمقراطية، النـزعة الإيكولوجية، نظرية الأمراض الاجتماعية، التفاعل بين النفسي والاجتماعي) وبفلسفة العلوم الإنسانية وبالإشكاليات المرتبطة بالتفاعلات بين المجتمع والطبيعة.

وبتقديمـنا هذا العمل إلى قراء اللغة العربية الذي نأمل أن يضيف لبـنة جديـدة ضمن مسار الأبحاث الفلسفية المتخصصة لفكر يورغين

هابـــرماس التي دأب بعض زملائنا على ترجمة نصوصه وما رافقها من شرح وتعليق.

ولا يفـــوتني في الأخير أن أنبه إلى الاختصارات الموجودة في متن الكتاب وهي خاصة بمؤلفات هابرماس، وضعها المؤلف مميزة في كتابتها بخط مائل تفاديا لتكرار عناوين الكتب وهذه الاختصارات كالآتي:

TP: Théorie et pratique النظرية والممارسة (1963)

LSS: Logique des sciences sociales مـــنطق العلـــوم الاجتماعية (1967)

CI: Connaissance et intérêt المعرفة والمصلحة (1968)

TS: La technique et la science comme idéologie التقنية والعلم كإيديولوجيا (1968)

TAC: Théorie de l'agir communicationnel نظرية الفعل التواصلي (1981)

MC: Morale et communication الأخلاق والتواصل (1983)

ED: De l'éthique de la discussion في أخـــلاق المناقـــشة (1991)

DD: Droit et démocratie الحق والديمقراطية (1992).

د. محمد جديدي

obeikandl.com

مقدمة المؤلف

بإمكاننا أن نعتبر هيغل* Hegel بداية لتحوّل ملاحظ حصل في الطريقة التي تتمثل بها الفلسفة ذاتها. هذه الأخيرة تنتهي في الواقع إلى تقبّل تاريخيتها الخاصة (أي في الآن نفسه ارتباطها بأفكار الماضي واندماجها في المرحلة التي تتجلى فيها)، وخاصة أن تضع لنفسها علنا كمهمة فهم العالم التاريخي الذي هو معاصر لها. إنها تضم إلى برنامجها المغزى من «إدراك زمانها بالفكر saisir son temps par la pensée» بل وتروم إلى إعادة تعريف ذاتها بالنظر إلى هذا المغزى. مع ذلك، فأن يتحقق هذا التحول في إطار المثالية المطلقة وفي ظل اقتضاء ميتافيزيقا

* جورج فلهالم فريديريك هيغل George Wilhelm Friedrich (1770–1831) فيلسوف ألماني ذو نزعة مثالية، عرف في اوساط الفلاسفة والمثقفين عموما المحدثين والمعاصرين بتأثيره القوي على المؤيدين والمعارضين له على السواء، تبلورت معه الفلسفة الألمانية الحديثة التي دشنها كانط (عقلانية نقدية) ثم تطورت مع شيلينغ (مثالية ذاتية) وفيخته (مثالية موضوعية) إلى أن صارت مطلقة مع هيغل. تقوم فلسفة هيغل برمتها على الفكر كأساس للوجود (المطابقة بين الوجود والفكر في مبدأ واحد هو التصور) والمعرفة والتاريخ وهو متطور من حيث الفكر والصورة والماهية وهكذا صاغ هيغل مذهبه على الفكر الجدلي (التطور بواسطة الجدل، جدل الفكرة ونقيضها والمركب بينهما thèse+antithèse=synthèse) ليس كطريقة عقلية فحسب وإنما حياة التصور ذاتها تكمن في تاريخها الجدلي وقد كان محور تحليله في الفن والدين الفلسفة. من أهم آثاره الفكرية: فينومينولوجيا (ظواهرية) الروح (1807)، موسوعة العلوم الفلسفية (علم المنطق) (1812–1816)، مبادئ فلسفة الحق (1821). (المترجم)

ثقيلة للتاريخ، بمعنى لفكر يزعم تبيان المعنى النهائي ومن ثمة إقامة بشكل نظـــري (تأملـــي) تأويلا نهائيا للحاضر كما للماضي، يطرح مشكلاً: ذلك المتصل بكيف يمكن لتجديد هيغل، حول هذه النقطة المحددة، أن ينفـــصل عـــن تـــوجهاته الخاصة بنسقه، وهي وحدها من يمنحه على مـــا يبدو خلفية (قاعدة). إن الإجابة البسيطة جدًا حول هذا التساؤل، والأكثر مصداقية كذلك، يمكن صياغتها كالآتي: في ظل سياق ما بعد ميتافيزيقـــي، يمكن للفلسفة أن تقبل تاريخيتها وتؤكد ميلها للتفكير في الحاضـــر التاريخي شريطة إقامة روابط راسخة، وهي جوهرية لمسعاها الخـــاص، مـــع المعـــارف الوضعية التي تأخذ سلفا هذا الحاضر نفسه موضوعا وتكرس ذاتها لفحصه الإمبريقي. إذن، يتوجب عليها أن تقيم ارتـــباطا عضويا مع العلوم الاجتماعية، بالقدر الذي يمكن معه افتراض أن هذه الأخيرة تعمل من بعد حتى على تطوير معرفة منهجية وإمبريقية مـــبررة عـــن العالم المعاصر، ومن دونه يكون كل خطاب عن الحاضر التاريخي مهدد بأن يتهم بكونه فارغا واعتباطيا.

في القـــرن العـــشرين، حتى وإن كانت بعيدة عن تشكيل الاتجاه الوحـــيد الـــذي دافـــع عنها، فمن دون شك تعتبر «النظرية النقدية Théorie critique» المؤســـسة من طرف هوركهايمر* Horkheimer

* مـــاكس هوركهايمـــر Max Horkheimer فيلـــسوف وعالم اجتماع ألماني (1895–1973)، مدير معهد الدراسات الاجتماعية من 1930 إلى 1969، أحد أعـــضاء مدرسة فراكفورت (النظرية النقدية) ومن مؤسسيها اهتم بالأساس بـــتقديم سوســـيولوجيا مادية وإنسانية ترتكز على منطلقات ماركسية وذات تـــوجهات عمالـــية يلعـــب فيها النقد المتعدد الفروع (فلسفة، علم الاجتماع، اقتصاد، علم النفس) دورا مهما. من أهم مؤلفاته: جدل الأنوار بالاشتراك مع أدورنو (1947)، نحو نقد العقل الآداتي (1967)، النظرية التقليدية والنظرية النقدية (1970). (المترجم)

ومساعديه هي التي حاولت توضيح هذا الحل بأكثر وعي وأكثر عزم[1]. فقد أكد هوركهايمر بداية ارتباطه بـــ هيغل وذلك بتطويره للفكرة التي مفادها أن الفلسفة لا يمكنها اليوم الاستمرار بأداء مهامها الكلاسيكية، وبالخـــصوص مهامها النقدية والتحررية، إلا إذا أصبحت فكرا للحاضر التاريخـــي. بـــيد أن إسهامه الحقيقي تمثل في إضافة أن هذا التحول لن يكـــون ممكـــنا إلا بـــثمن التخلـــي عن النسق وبتكفل نشيط بالعلوم الوضـــعية: بجعـــل مـــسافة مع كل ميتافيزيقا للتاريخ، إن الأمر يتعلق فـــصاعدا بالنسبة لها بإدماج والتفكير حول نتائج مختلف المعارف التي تـــساهم سواء بشكل مباشر (السوسيولوجيا Sociologie، الاقتصاد Économie) أو بـــشكل غير مباشر (السيكولوجيا Psychologie) في ذكاء السلوك.

إن هذا الموقف لا يكتفي بذاته. إنه يفترض وعيا للصلة الموجودة بـــين الفلـــسفة والعلوم الموجهة بواسطة تأويل الحاضر، وكذا لتقدير مناسب جدا للمكتسبات المحصلة بواسطة هذه، والتي سعى النظر إليها علـــى أنها مركز جاذبية علوم الإنسان. هذان التوجهان قاداه من جهة أخرى إلى إحداث قطيعة هامة في إبستيمولوجيا هذه الفروع، التي تؤيد برنامج النظرية النقدية. إنها تتضمن رفض جميع الثنائيات التي حاول من خلالهـــا الفلاســـفة عـــادة تقـــسيم حقـــل المعرفة (علوم دقيقة/علوم

1 قـــدم هوركهايمر صيغتين لبرنامجه: الأولى («وضعية الفلسفة الاجتماعية ومهام الـــبحث الاجتماعـــي» (1931) in *Théorie critique*, Payot, p. 65-80) تنطلق مـــن لزوم إعادة تأسيس فلسفة العقل الموضوعي لـــ هيغل بداية من الأخذ بعين الاعتبار العلوم الحالية؛ الثانية («النظرية التقليدية والنظرية النقدية» (1937) in *Théorie traditionnelle et théorie critique*, Gallimard, p. 15-90) تـــستدل انطلاقـــا مـــن مثال الاقتصاد السياسي لـــ ماركس Marx وتبرر ذاتها بواسطة ضرورة تفكير ذاتي للعلوم، وبوعي لتاريخيتها ووظائفها العملية.

إنسانية/علوم الطبيعة/علوم الذهن/علوم موضوعية/علوم ذاتية، إلخ). لاستبدالها بتعارض وحيد وواضح: تعارض بين العلوم التي تنتمي، مثل أي تكوين ثقافي، إلى حاضر تاريخي، ولكن من دون استخلاص نتائج («النظرية التقليدية théorie traditionnelle») والعلوم التي، أكثر من ذلك، تموضع هذا الحاضر وتحوله إلى موضوع للمعرفة، تتفكر إذن بعمق وكأنها مرتبطة به، وتؤكد ميلها أن يكون مفترضاً ومتغيراً عمليا («النظرية النقدية théorie critique»)[1]. بالفعل، إن هذا الفرق الجلي هنا، والذي يبرز خصوصية معارف الحاضر، بالمعنى الذي يكون معه هذا الأخير في الآن نفسه معرّفها ووجهة النظر التي تتمركز عبرها، تجرّ معها، حسب هوركهايمر، سلسلة بأكملها من الخصائص الإبستيمولوجية، المنهجية والعملية الملاحظة جدا. إنها وحدها بالتالي من يبرر تمثيلا ثنائيا للعلوم.

وباختصار، يقدم هوركهايمر أربعة قرارات مُؤسِّسة بغرض إعادة صياغة (إعادة تشكيل) ضمن سياق ما بعد ميتافيزيقي للموضوع الهيغيلي للفلسفة باعتباره فكرا للحاضر. لقد عزل بقوة، داخل الثقافة المعاصرة، مجموعا دلاليا (المعارف المتمركزة حول الحاضر التاريخي) الذي أخطأته التأويلات الكلاسيكية للعلوم الإنسانية. وهكذا يجدد موضوع خصوصية هذه الأخيرة بتحويل خط التقسيم الذي يسمح بإظهار وجود معارف لا تقبل الرد إلى نموذج علوم الطبيعة: وهو ما يتيح فصاعدا تثمين الفرادة، فالمعارف هي التي توضح الظروف

1 هذه النقطة سيؤكد عليها هابرماس Habermas: لقد توصل هوركهايمر Horkheimer إلى تطوير «تصور جد أصيل للفلسفة. لقد سعى لمواصلة الفلسفة بوسائل أخرى – أي بوسائل متأتية من العلوم الاجتماعية». (Textes et contextes, Cerf, p. 52) سنشير إلى نصوص هابرماس ضمن الترجمات الفرنسية المتوفرة بتعديلها إن اقتضت الحاجة.

والأوضـــاع الـــراهنة المحددة لهويتنا التاريخية وأفق فعلنا الممكن. يؤكد بعـــدها هوركهايمـــر علـــى الاستمرارية الطبيعية للفروع التي أضحت متفـــردة عـــن طريق المسعى الفلسفي، وهو ما يبرر أن جعل من هذا مادتـــه المفضلة. إنه يسمي في الأخير «نظرية نقدية» البحث متداخل الفـــروع أين تتقاطع فلسفة مخصبة بالعلوم الوضعية، بالخصوص بالعلوم الاجتماعية، وعن طريق عمل إمبريقي مدفوع بواسطة الوعي الفلسفي بغايات ورهانات معرفة الحاضر. إن موضوعه الحقيقي سيكون بالفعل تمييـــز الحـــالات المرضية، أزمات الحاضر، لأجل تنمية الذكاء الموجود لـــدى الفاعلين، ومن هنا، جعل الفعل التاريخي المستنير الذي يستهدف الـــتغلب علـــيها ممكـــنا. إن وظيفته النقدية إزاء الاستلابات الموجودة وارتـــباطه بأهمية التدخل العملي التحرري يفسر في نهاية المطاف المكانة الـــسامية والأصـــالة التي ينبغي أن نعطيها إلى معرفة الحاضر، حسب هوركهايمر.

ومع هذا هناك أسباب للشك أن تكون النظرية النقدية قد انتهت إلى نقطـــة توازن في تمثيل الذات ما بعد هيغيلية لفلسفة تحولت في الآن نفسه صوب الحاضر التاريخي وصوب العلوم التي تخشاها إمبريقيا. هذه الـــشكوك متأتية في حقيقة الأمر بأنه وبسرعة، منذ بداية الأربعينيات، ومـــن دون شك جزئيا تحت ضغط الأحداث، ولكن أيضا تحت تأثير الـــصعوبات المرتبطة ببعض افتراضاتها النظرية، حيث عَدَّل هوركهايمر عن برنامجه الأصلي. ففي *ديالكتيك العقل* *Dialectique de la raison* وهـــو الكتاب المؤلف بمعية مساعده الرئيسي، أدورنو* Adorno، إنه

* تيودور أدورنو Theodor Adorno (1903–1969) فيلسوف وموسيقي ألماني أحد مؤسسي مدرسة فرانكفورت الفلسفية النقدية، اهتم بالموسيقى فبرع فيها نظـــريا وتطبيقـــيا، عمـــل على تجديد الاستيطيقا انطلاقا من خلفية فرويدية

ينفـــيه حـــتى بكيفـــية معلنة ويعود في الحقيقة، وذلك بإعطائه مظهرا تـــشاؤميا يبدو أنه يبعده عن هيغل، إلى فلسفة التاريخ، أي إلى الفكرة التي ترى أنه بإمكان الفلسفة أن تعمل بوسائلها الخاصة على تشخيص شامل حول العالم المعاصر وأن تنظر إلى العلوم لا بوصفها شريكة، بل باعتـــبارها أعراض نـــزعات واتجاهات تتجاوزها. بعد الحرب، حاول بالأحـــرى الخطاب حول الحاضر التاريخي لديه أن يأخذ شكل حكمة منتقمة تطعن في دناءة ونفاق مجتمعاتنا، وفق نموذج يَدِين أكثر إلى كتابة الأخلاقـــيين Moralistes والـــروائيين Romanciers منه إلى مناهج السوسيولوجيا[1]. إن هذا الانفصال إزاء العلوم الاجتماعية يبرز بشكل أكثـــر وضوحا لدى أدورنو، وبكيفية مؤسفة جدا بقدر ما أن أدورنو شـــارك بفعالـــية في تلـــك المحاولة لدمج بين النظرية النقدية والبحث الإمبريقي الذي تولد عن هجرة الأعضاء الأساسيين لمدرسة فرانكفورت l'École de Francfort إلى الولايات المتحدة، وحيث أن الدراسة حول «الشخصية المتسلطة personnalité autoritaire» شكلت التظاهرة الأكثـــر بـــروزا[2]. وهكذا أمكن وصف مساره الفكري الحرب وكأنه

ماركسية وهي نفسها الأرضية – مضافة إليها الرؤية النيتشوية – التي قامت عليها النظرية النقدية كما تجلت في كتاب جدل الأنوار الذي ألفه أدورنو من صـــحبة هوركهايمـــر ســـنة 1947 ومن أهم كتبه: فلسفة الموسيقى الجديدة (1948)، مقدمـــة إلـــى سوســـيولوجيا الموسيقى (1962)، الديالكتيك السلبي (1966). (المترجم)

1 Horkheimer, Notes sur le temps présent (1949-1969), Payot.

2 لأجـــل استحـــضار يـــستعيد مـــن طـــرف أدورنـــو ذاتـــه لهـــذه المرحلة أنظـــر: نـــص 1968 حـــول «الأبحـــاث التجـــريبية في الولايات المتحدة Les recherches expérimentales aux Etats-Unis» ضـــمن نماذج نقدية in *Modèles critiques*, Payot, p. 230-260 وأنظـــر أيضا: جاي، الخيال الجدلي Jay, *L'imagination dialectique*, Payot, chap. 7.

مدفـــوع جزئيا بإرادة تبرير ابتعاده مقارنة بالعمل الإمبريقي ومن هنا، عن البرنامج الأصلي للنظرية النقدية[1]. فبعض توجهات فكره تدعو إلى ذلـــك بالفعل: فعلى سبيل المثال، الانكفاء على فلسفة مختزلة في التأمل حول استحالة إنجازه وعلى الرفض التام للعالم الحاضر؛ أو كذلك تثمين عمل الفن، الذي أصبح فصاعدا القوة الوحيدة للاحتجاج الممكن لعالم استنفذت فيه كل مصادر التحرر الاجتماعي والسياسي.

مـــن الـــصحيح وفي جمـــيع الأحـــوال بـــأن كـــتاب أدورنو، «الـــسوسيولوجيا والـــبحث الإمبريقـــي Sociologie et recherche empirique»[2]، هـــو الذي يمثل النقطة القصوى للرفض التدريجي من قـــبل مؤسسي النظرية النقدية لمشروعهم الأولي، والذي يشرح بأكثر وضـــوح الطروحات التي قادها هذا الأخير. في هذا النص، الذي يقدم مجمـــوع الـــبراهين التي أثارها سنوات فيما بعد أثناء نقاشه مع بوبر* Popper بخـــصوص المهام المعاصرة للسوسيولوجيا، يشرع أدورنو في إدانـــة شاملة ومن دون تنازلات للتوجهات الحديثة لهذا الفرع. هكذا،

---

1 Cf. Wiggershaus, *L'École de Francfort*, PUF, p. 456-484 et, dans une certaine mesure, Habermas, *TAC*, t. 1, p. 387-390. يرجـــى العـــودة حـــول هذه النقطة إلى كتاب ويغرهاوس: النظرية النقدية منشورات بـــيف PUF (فرنسا) وإلى حد ما هابرماس في كتابه المشار إليه بالحروف *TAC* أي نظرية الفعل التواصلي.

2 De Vienne à Francfort. La querelle allemande des sciences sociales, Complexes, p. 59-74.

* كـــارل ريموند بوبر Karl Raimund Popper (1902–1994) فيلسوف إنكليزي مـــن أصـــل نمـــساوي، كان في بداية حياته الفكرية على صلة بالوضعيين المناطقة (جماعة حلقة فيينا) لكنه اختلف معهم وقطع صلته بهم، انتقد زعماء مدرسة فرانكفورت لاسيما تاريخانية المدرسية وماركسيتها الجديدة. من أهم أعمالـــه: منطق الكشف العلمي (1935)، بؤس التاريخانية (1944)، المجتمع المفتوح وأعداؤه (1945). (المترجم)

يفسر الانبثاق الحديث لعلم اجتماعي إمبريقي صرف باعتباره تراجعا وليس تقدما، والذي صار ممكنا بواسطة اكتمال مناهج البحث، وحيث أن ملامحه المتميزة هي الصرامة الإحصائية في جمع المعطيات والتدقيق الرياضي في تأويل النتائج. بالفعل، فإن هذا التحول، كما يؤكد، متماسك مع هروب إلى الأمام في التخصص وعمى متنامي إزاء ضرورة ترتيب لمواضيع البحث ضمن سياق الكل الاجتماعي[1]؛ تصاحب ذلك نزعة تقديس المنهج (جمع ومعالجة المعلومات)على حساب الملاءمة الموضوعية. في ارتباطها بمأسسة البحث، فإن التطور الأخير للعلوم الاجتماعية قاد أيضا إلى تنصيب التفاهة الإمبريقية بطريقة واجبة في التفكير[2]؛ من خلال دعوتها إلى تغييب كل تفكير نقدي، فإنها تبقى حبيسة تصور للمعرفة يتأتى من علوم الطبيعة ولا يرتاب حتى في وجود توجهات بديلة.

غير أن الإدانة هي على الخصوص من مستوى سياسي التي تستدعيها أخطاء العلوم الاجتماعية الحديثة، لأن عدم القدرة على النقد التي أضحت بادية تكشف، حسب أدورنو*، عن طبيعتها العميقة. بانحدارها من دراسات السوق، تكيفّها مع حاجات الإدارة، مستقلة

---

1 «لقد تجاهلت المناهج الإمبريقية (استبيان، حوار، وكل ما يمكن القيام به عن طريق دمجها) ما يحقق الموضوعية الاجتماعية: مجموع كافة العلاقات، القوى، المؤسسات، التي يفعل ضمنها الناس؛ وعلى أضعف تقدير اعتبرت وكأنها عرضية (تلقائية)».
(Adorno, «Sociologie et recherche empirique» (1975), in *De Vienne à Francfort*, p. 62).

2 «اليوم، وفي الوقت الذي يخلف فيه رئيس المكتب العالم، فإن الذهن لا ينظر إليه وكأنه فضيلة لذلك الذي يدمج بكيفية متواضعة وجد متكيفة مع الفريق، لكن هذا النقص يتمأسس زيادة على ذلك عن طريق تهيئة طرائق بحث لا تعتبر ضمنها تلقائية الفرد إلا قليلا أي بوصفها عاملا للاحتكاك» (*Ibid.*, p. 71).

* نسبة إلى أدورنو Adorno.

عـــن الأفكار المسبقة الخاصة بمجتمعات في الآن نفسه مُجزّأة ومحطمة للفـــرد، فإنها تشكل فصاعدا معرفة وظيفية خالصة، محافظة بنـــزعتها، باختصار، إيديولوجية. هكذا فإن التحولات المعاصرة للسوسيولوجيا، والـــتي، من الوهلة الأولى، يمكن أن تبدو وكأنها تمهيدات ليست قادرة على تشريف، بل حتى على تقييم حسب المعايير التي تدعي انتسابها لها، مـــزاعمها بخصوص النـــزعة العلمية. ينبغي إذن رفض مسؤولية قطيعة الارتباط بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية على هذه الأخيرة.

بسبب راديكاليته، ينهض التحليل الأدوربي، كما نراه، من وجهة نظـــر لفلـــسفة مُعارض يبدو أنه استنفذ في اتجاه رد فعل محض، لكي لا نقول تجديدي بالنسبة إلى العلوم الموجودة. لأنه لا يجتهد فحسب في إظهار أن لا شيء أساسي يمكن الإبقاء عليه من المعارف الوضعية كما هـــي مطـــبقة حاليا، لكن، وأكثر من ذلك، تحتوي في ذاتها على إدانة خالـــصة وبـــسيطة لمشروع علم اجتماعي إمبريقي. إن سيادة النظرة الفلسفية على الحاضر تجد مشروعتها بكيفية أكثر جلاء وأكثر من أي وقت مضى. ويمكن، بهذا المعنى، أن نتحدث عن فشل النظرية النقدية، إذا مـــا حكمنا عليها على الأقل مقارنة بقصدها الأول، الذي تمثل في إقامـــة علاقـــة واضحة بين الفلسفة والعلوم انطلاقا من اقتضاء ذكاء يعكـــس الحاضر التاريخي. بالفعل، فإن مبادئه الأساسية لم تتمكن من اعتراض، لكي لا نقول أنها شجعت سرا، التأكيد مجددا على الاتجاهات الـــتي سجلت في الواقع رجوعا إلى هيغل، الكاتب الذي كان بالضبط ومن المقترح تجاوزه.

بيد أن النقاش حول السوسيولوجيا في منتصف الستينيات لم يحدد فقط اكتمال دور ما بالنسبة إلى مؤسسي النظرية النقدية. إنما منح أيضا الفرصـــة إلى أحد الزعماء الشبان، وهو هابرماس، الذي تقدم بوصفه

تلميذا لـــ أدورنو، لتحضير بداية جديدة. وفعلا، إذا كانت المداخلات الهابرماســـية الأولى[1] يمكـــنها أن تقـــرئ عند الاقتضاء بوصفها مجرد تعلـــيقات علـــى أقوال هذا الأخير، فإنها طورت بالفعل منظورا ضمنيا ســـلفا نقـــدياً إزاء الإدانة الأدورنية للعلوم الاجتماعية الحديثة[2]. بأكثر تحلـــيل وتمييز في لهجتها، فقد سعت إلى تجنب تنحية شاملة للمعارف الموجـــودة: إن توضـــيح أخطاء السوسيولوجيا يتم باسم ما يمكن لهذه الأخـــيرة أن تكـــون علـــيه، وإذن لاهتمامات خاصة بعلم اجتماعي مـــستقل، ولـــيس بـــناء من حكم فلسفي مشرف، ميّال إلى مراجعة والتـــشكيك في المبدأ ذاته لمعرفة إمبريقية بالوقائع الاجتماعية. يمكننا أن نتـــصور، وضـــعيا، مـــا يؤســـس انعطافا كهذا وهذه الثقة الممنوحة للمعـــارف: يـــريد هابرماس أن يعطي لبرنامج النظرية النقدية فرصته لمناقـــضة التطور اللاحق لمؤسسيه، أنها يؤكد ضدهم على أن التغيّرات التاريخـــية والـــتحولات في الـــسياق الفلـــسفي والعلمي الحاصلة منذ الثلاثيـــنات أظهـــرت خصوبة وليس بطلان للمشروع النقدي، ذلك المـــتعلق بفلسفة تفهم على أنها إدراك يفكر للحاضر التاريخي وتبحث، حتى تصير كذلك، بتمفصل خطابها على العلوم الإمبريقية.

---

1 «Théorie analytique de la science et dialectique», «Contre le rationalisme disséqué à la mode positiviste», in De Vienne à Francfort.

2 ســـيكون هابرماس أكثر وضوحا في النص اللاحق جوانب فلسفية وسياسية *Profils philosophiques et politiques*, Gallimard (p. 256) أين يتأسف بـــأن عمـــل أدورنـــو ساهم في إضفاء المشروعية على اتجاه مضاد لإلهام النظـــرية الـــنقدية :« إن نقـــد العقـــل الأداتي يمكن [...] أن يستغل كمفتاح لهيرمينوطيقا الأعماق لها القابلية على مهاجمة أي نوع من التوضيع لوجودنا المـــتدهور؛ إنهـــا تكتفي بذاتها وليست بحاجة أن تستتبع النظرية الاجتماعية بعمل إمبريقي».

مـــع هـــذا فإن إرادة الاستعادة هذه ليست ساذجة. ففي وقت مبكـــر، شرع هابرماس في عمل حذر من أجل إبراز نقائص البرنامج الأصـــلي للمدرسة* الذي قال أنه ينتمي إليه ويكشف ضمنه ما يشكل عقـــبة في ســـبيل تحقيق مراميه الواعدة. بالجملة، يبدو أنه يربط هذه النقائص بقبول غير مفكر فيه من طرف النظرية النقدية للملامح الأكثر رفـــضا لـــلإرث الماركـــسي. على سبيل المثال، يقترح هابرماس، بأن هوركهايمر على الرغم من ندائه إلى تعددية التخصص، أصر على النظر إلى الاقتصاد السياسي لـــ ماركس Marx* وكأنه نموذج المعرفة النقدية للحاضـــر: فقـــد كـــان ذلك من دون شك بمثابة إعطاء قاعدة ضيقة لبرنامجه، علاوة على أن موقفه هذا تزامن مع، بكيفية جد إستشكالية، دعوى تفوق مبدأ «المنهج الديالكتيكي La méthode dialectique»، الـــذي يعـــتقد أنه بات متجاهلا من قبل العلوم التقليدية. كذلك، فإن هوركهايمر، وفي الثلاثينيات، لم يكن متحررا، على ما يبدو من الفكرة

* ماركس (كارل) Marx (Karl) (1818–1883) فيلسوف واقتصادي اشتراكي ألماني، طوّر نظرية وإيديولوجيا أصبحت تحمل اسمه وهي الماركسية التي أصبحت لها صيغ وتنوّعات في التجارب التي طبقت فيها (السوفياتية اللينينية والـــستالينية والتروتـــسكية، الـــصينية الماوية، الكوبية.... إلخ)، وقد بنيت الماركـــسية علـــى المبدأ المادي في تحريك الاقتصاد، التاريخ، الإيديولوجيا والمجـــتمع وهو ما تمثله المادية الجدلية (وسائل الإنتاج ملكية جماعية تمثل البنية التحية وعلاقات الإنتاج تمثّل البنية الفوقية) والمادية التاريخية (التحوّل مـــن الرأســـمالية إلى الشيوعية التي تسود فيها البروليتاريا) كما بنيت أيضا على رفض مهمة التفسير بل الدعوة إلى التغيير الذي يحمل بعدا ثوريا وعلى الـــصراع الطبقي. أعلن مع إنغلز البيان الشيوعي سنة 1848 وأسس الأممية الأولى. من كتابات ماركس التي أثرت في التاريخ الحديث والمعاصر نذكر: نقـــد الفلسفة السياسية لـــ هيغل (1843)، أطروحات حول فيورباخ (1844)، العائلـــة المقدســـة (مـــع إنغلز 1845)، بؤس الفلسفة (1847)، خطاب حول التـــبادل الحر (1848)، أسس نقد الاقتصاد السياسي (1857–1858)، رأس المال (1867). (المترجم)

التي مفادها أن البروليتاريا تشكل بامتياز القوة الحاملة للانعتاق البشري، والتي يتوجب إذن على الخطاب النقدي أن يستند إليها بكيفية مفضلة. منذ ذلك الوقت، وفي فترة الفاشية المنتصرة، تلاشت هذه الصورة، وتوجب للأسف أن تصحب معها فكرة معرفة وثيقة الصلة بمغزى التحرر وتُخلي مكانها لتشاؤم تاريخي مطلق يرخص للتخلي عن الارتباط بالعلوم.

يتعلق الأمر إذن بالنسبة إلى هابرماس بتخفيف النظرية النقدية من حمل العناصر التي يمكن أن تلحقها مرة أخرى بفلسفات التاريخ، والتي فرضت نفسها في النهاية، تحت صور معدلة، في الأعمال المتأخرة لـ هوركهايمر وتلك الخاصة بـ أدورنو. لهذا، يجب تقبّل وتطوير بوسائل جديدة وبكيفية متعقلة المفاهيم التي وجهتهم حدسيا: إن تفرد المعارف المتعلقة بالعالم المعاصر، العلاقة بين المعرفة والمغزى التحرري والنقدي، الارتباط بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية. لا سيما، وأن تمفصل هذين التأليفين بثبات وعمق بأكثر مما توقف عنده هوركهايمر بات مطلوبا. إن أصالة هابرماس تكمن في تنفيذ ذلك على أساس من الاهتمام بالتراث السوسيولوجي، في تمظهراته المختلفة وامتداداته الحالية، والتي ليس لها ما يعادلها لدى هوركهايمر. بكيفية استفزازية مقارنة مع الدوغما التي باتت لدى مؤسسي مدرسة فرانكفورت اختزالاً هذا الفرع في الإيديولوجيا، إنها السوسيولوجيا، وليس الاقتصاد، مثل هو الحال في الماركسية Marxisme الذي يكون مكرسا باعتباره الفرع الأساسي القائد لتحليل العالم المعاصر. إننا نريد أن ندرس هنا نتائج هذا القرار الأول، الذي يحيل في خصوصيته إلى الاسترجاع الهابرماسي للنظرية النقدية. فما هي طرائق التملك الفلسفي للعمل السوسيولوجي التي ساعدت على انتشارها؟ ما الذي قدمته لفهم

الممارســـة الفعلية للسوسيولوجيين؟ لا يمكن اقترح إجابة وحيدة حول هذه الأسئلة. ذلك أنه يمكننا القول بأنه إذا كانت نية هابرماس الجلية، منذ فترة تعليقه على نص أدورنو، تتمثل في إقامة فكر فلسفي للحاضر التاريخي يتأمل علاقته بالعلوم الاجتماعية وقد بقيت سليمة، مُكوّنة حتى أحـــد مواضيع عمله. بالمقابل، فإن الصياغات المحددة والتي أفرزتها هذه النـــية قـــد تغـــيرت بشكل معتبر. إن الفكرة المزدوجة في الانتساب الأساســـي للفلـــسفة وللعلوم الإنسانية الموجهة بواسطة تحليل ما هو معاصر قد توقفت، مثلما هو الحال في المحاولات الأولى لـــ هوركهايمر، وهي بديهية غير متعقلة لذاتها؛ عن أن تكون مشكلة بعينها، فغدت إذن خاضعة لعمل خصب بإعادة تعريف دائم. مع هذا، يمكننا الفصل لدى هابـــرماس بـــين ثـــلاث نظريات متتالية في علاقة العلوم الاجتماعية، وبالخـــصوص الـــسوسيولوجيا التي يفضلها. في مرحلة أولى، يجعل من مهمـــة الفلـــسفة تأسيس هذه الأخيرة؛ ثم يتوقع علاقة أكثر حيادا في الـــتعاون فيما بينها؛ وفي النهاية، يبين كيف أن هذه العلوم يمكنها، إلى حـــد مـــا، أن تكون بصورة إيجابية مندمجة في الخطاب الفلسفي. هذه النظريات تمثل كل واحدة تطورا ممكنا حول دافع معرفة الحاضر الذي هـــو في الآن نفـــسه تأملي وامبريقي، لكن، في جزء منها، تشكل [أي النظـــريات] أيـــضا مراحل حل تدريجي لمشكل التمفصل بين الفلسفة والـــسوسيولوجيا. إن غايتنا تكمن في إعادة تشكيل التماسك وتقييم المساهمات.